تلويحات في المتغيِّر العراقي عن السؤال الثقافي والقراءة الواهمة

احمد تامر جهاد

على الرغم من الصعوبة البادية بوجه أية محاولة تتطلع إلى قراءة الاتجاهات التي تهيمن على خريطة ثقافة الواقع العراقي الجديد على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية أو استشراف مستقبلها ، فإن بالإمكان تلمس بعض السبل الموضوعية في مختلف المسارات الحياتية ، ذلك بالرجوع إلى تاريخية الصراع وفهم أبعاده الحقيقية ، وتحديدا عبر تفكيك آليات الصراع من زاوية إمكانياته وآفاقه ومرتكزاته الأساسية . لكن حتى مع الصعوبة هذه بدا لنا إن إحدى المشكلات الملموسة التي بدأت تطرح نفسها الآن بدرجات متفاوتة في فضاء الحياة العراقية الراهنة بمختلف أصواتها وتطلعاتها ، هي المتعلقة بتحديد طبيعة الخطاب الثقافي عامة في زمن المتغير السياسي الحالي الذي ترك تداعياته وآثاره على جوانب الحياة العراقية كافة . وقد يكون من المناسب الاعتراض إجمالا على هكذا طموح بالقول : إن من غير المناسب أو المنطقي الشروع حاليا بترسيم قراءة تتعجل معرفة نوع الخبز قبل بلوغ الفرن أقصى درجات سخونته ، إلا في حدود القبول بقانون الاحتمال والترجيح الذي يحكم اغلب القراءات التي تتوسم عقلانية ما في تصويباتها المرجوة .

١- ليست ثورة :

من النوع الذي يتكفل مجرى الواقع بتخفيف حدته لاحقا ، كان الزلزال العراقي محط أحلام وأمنيات بالنسبة لعديد من القراءات ممثلة بأطرافها أو العكس، فيما يبدو من الضروري حاليا تحرير كل الطاقات والعقول من ربقة الوهم السياسي داخل النخب والأحزاب السياسية ، حتى يكون بوسعها التفاعل جدليا مع معطيات الواقع بمختلف صوره ، والذي تسهم الأطراف غير العراقية بصياغة ملامحه الأساسية وتحديد اتجاهاته اكثر من سواها، طالما أن المستعمِر يشارك بفاعلية خاصة في كتابة تاريخ الشعوب التي لامس أرضها وناسها ، مثلما يذهب المفكر (إدوارد سعيد) في قراءته للظاهرة الكولونيالية، ومع تنامي الشعور بعسكرة عالم اليوم لن يعود حتميا إسهام البشر في صنع تاريخهم عبر تصميم ثوري وإرادة طهرانية ، تتعاطى بديماغوجية مع ظرف موضوعي بعينه ، لا يستقر على حال ، في الوقت الذي تدعوك فيه واقعية حدوثه إلى حسن قراءته ، اقصد حسن قراءة العالم .

سيكون التحدي الأساسي المحتملة مواجهته عند محاولة قراءة تداعيات الشأن العراقي ، مرهون بغربلة صور بعينها من بين مجموعة كبيرة من الصور شغلت الساحة على نحو ظاهر ، ورسمت بأمنيات صرف لتطابق مجرى الواقع (المنفلت والشائك وغير المسبوق) . وقد يقتضي هذا العمل ضربا من التيقن الواعي يظهر للمرء بجلاء أن شيئا من تأثير (الخميني أو بن لادن أو الدبابات السوفيتية) لم يكن فريدا في حضوره، ولن يقوى على الاستمرار لوحده في ميدان المخاضات والاتجاهات السياسية والثقافية الأخرى ، إلا في حدود التمني الشخصي الواهم للأفراد والجماعات ، فثمة صورة أخرى مهيمنة تسعى إلى أن تكون اقرب إلى التصديق تكشف لنا :كيف يقف الحديد المر لعجلات (ابرامز) صلبا ، واضحا ، دالا اكثر من سواه ، بل كيف اصبح ذلك الاستعراض المخيف للقوة والموت مصدر الواقع المسموح برؤيته وتصديقه والتفكير به . قد نتساءل هنا : ما هي القراءة التي يمكن الاتفاق حولها بشأن ما جرى ويجري ؟ هل ثمة حقيقة متفردة يمكن تقديرها في عالم صوري دفع (ليوتار) إلى القول إن حرب الخليج الثانية لم تقع أبدا ؟

ربما كان (نيتشه) المفكر الوحيد الذي ازدرى هذا النوع من الجدل العقيم ، قائلا : إن امتلاك الحقيقة ، مثله مثل امتلاك أي شئ آخر يؤدي إلى السأم والملل . رغم الذي تقدم قد لا يقتصر الجوهر الفريد للعقلانية على معرفة العالم واقعيا ، إنما يتعداه أحيانا نحو اختلاق دراية سلبية به .

٢- امتياز ثقافي :

علينا أولا تحديد ماهية المتغير السياسي العراقي الراهن وتوصيفه ليكون بالإمكان التعرف على تفاعلاته وتداعياته المحتملة على الساحة الثقافية ، مقصد قراءتنا هذه.

وقبل محاولة الإجابة عن أولا ، قد نتساءل هنا : لماذا الحاضنة الثقافية دون غيرها مجال تأويلي للحدث العراقي بكامل جسامته ؟ من أين تتأتى الثقة بممارسة نظرية قد لا تتمثل مقولاتها ، فيما تزدري أحيانا مسرح الأحداث برمته ، قياسا لاتساع الهوة بين الأفكار والواقع ، ونظرا لواقعية قراءات أخرى ، مرجحة علميتها ، كالقراءة الاقتصادية والسوسيولوجية . مع ذلك قد يكون من العسير التفكير خارج حلول هذا التساؤل الخاص بالثقافة نفسها كامتياز مادي يحدد معالم الصلة بالعالم –كحراك واقعي –بأعلى درجة ممكنة من الوعي/ المفهوم . ولأنها (أي الثقافة) غير واعية أو متأكدة من معاييرها أحيانا، فإنها تاريخيا تعد مجالا جدليا ودنيويا مرجحا للتقويم والتأثير والشراكة مع أيما حقبة زمنية تجري إعادة صياغتها للخروج من اسر هذا المأزق الإشكالي للواقع القائم بكامل التباساته ، والذي يستعصي نموذجه العراقي على التناول المفهومي . لذا فإن أية محاولة للخروج بنسق معرفي من قراءة متاهات الملف العراقي وتفسير أحجياته هي عمل إبداعي صرف .

لنجرب أن نتساءل إن كان لدينا اليوم ما يمكن تسميته بـ (ثقافة تغيير) ، تعد نسقا لمجموعة قيم معينة تفتحت أو هبت علينا بمعية المتحول السياسي الراهن ؟ إذا كنا نتفق على رجاحة البرهان المضاد ، من إن الذي حدث ويحدث لم يكن من قريب أو بعيد (تحولا ثوريا) بالمعنى الذي يحدده القاموس السياسي لمفهوم الثورة بوصفها باكورة التفاعل بين النظرية والممارسة على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، فقد لا نختلف في القول ان التغيير في العراق كان عملا عسكريا دراماتيكيا، عملا هوليووديا ذكيا صمم للعرض على شاشات العالم ، قد حتمتهُ حاجة أمريكا للتدخل السريع في الشرق الأوسط وإدارة الصراع فيه بشكل ينسجم ومسار مصالحها في رؤية توازنات جديدة تفرغ الدول المارقة –بتصورها – من دائرة العنف وتربط اقتصاداتها بعجلة اقتصادات الشركات الأمريكية المعولمة ، ناهيك عن محاولة تبديل النخب العربية العتيقة بأخرى جديدة تتماشى مع رياح العصر الأمريكي، في الأقل هذا ما يكشفه منطق الإدارة الأمريكية حاليا من على المنابر الإعلامية العالمية . وسيكون من مقتضيات هذا التوجه السياسي الأمريكي الجديد الذي تبلور بعد أحداث ١١سبتمبر ، استحداث إجراءات عديدة على الصعيدين الاجتماعي والثقافي –بعد تطويع السياسي والاقتصادي - تهدف إلى تخفيف التوترات العقائدية واقامة مؤسسات ليبرالية على الطراز الغربي تؤمن نوعا من الحياة التعددية والرفاهية النسبية بوسعها الوقوف بوجه الأخطار الأصولية والتزمت العقائدي أيا كان . وفي المحصلة لا مناص من التعامل معه بصفته توجها جديا يظهر محدودية الخيارات الستراتيجية لمنطقنا السياسي والثقافي معا . وحيث لم نشهد انتفاضة جماهيرية ولا بطلاً ساحرا، كما أن لا مجال لافتراض صور بطولية كهذه في مكان صغير معولم يدار من على شاشات حساسة ، فليس ثمة ثقافة ثورية بالمعنى الذي تدخره الكتب.

٣- استنطاق الشفرات :

إن اغلب الخطاب الإبداعي في العهد السابق كان محاطا بنظام شفروي ملغز حقق فيما حقق نوعا من المتعة والشراكة الدالة مع المتلقي ، وحصن منتجه في الوقت نفسه من مزالق الكشف المبرهن، بمعنى أن الاتكاء على خندق التأويل المزدوج كان درعا لمنتج الخطاب يحتمي به ويلجأ إليه تجنبا لسلطة هوجاء فرضت أسوارها المنيعة على حركة الإنسان بمجمل فعالياته الثقافية والمعرفية، هذا من جهة ، ونقطة شروع بمناورات تكتيكية للخطاب نفسه من جهة أخرى . وباعتبار أن أية محاولة لتأمل مفاصل الخطاب تفضي بالضرورة إلى تلمس نسق سلطوي موارب فيه ، سنكون إزاء سلطتين غير متكافئتين ، هما : السلطة الرمزية للثقافة والسلطة الفعلية للمؤسسة ، مع ملاحظة صعوبة الفصل – كما هو معروف –بين السلطتين بشكل معياري أو تفضيلي ، لا في الحقب الدكتاتورية المعهودة ولا حتى في الحقب الليبرالية . فما بالك بامتياز الدكتاتورية العراقية ؟ ولا احسب أننا نتجنى عليه إذا قلنا إن معظم إبداعنا السابق كان يسبح في عوالم رمزية ، متوغلا في مناطق محظورة تتغشى بالأسرار والإيحاءات خشية الإمساك به متلبسا ، فيتوارى حينا ويؤشر بوضوح نسبي حينا آخر . أما ما ينجز الآن بقليله المعلن للاستهلاك اليومي فيبدو انه يتراوح بين حالتي اليقظة والحذر وعدم الثقة من استقراء الأفق القادم بجلاء ناجز ، يحاول الإعلان عما يدخره للحظة المصيرية الراهنة من سبل جديدة للتواصل مع قيم الإنسان والثقافة . وقد يكون من حق البعض ان يتريث قليلا ريثما يصبح بمستطاعه فك شفرة العصر القريب الآتي والذي يحتاج ردحا زمنيا قبل استبيان ملامحه وتوجهاته .

القناديل النجمية لعطشنا الى ينابيع وجهك

نصيف الناصري

في الانعكاسات المعاندة لمرايا تنهداتك وتنفساتك المحمومة في السرير . عبر فراء فخذك العذب عذوبة ضوء النبيذ . في نجمة نهديك المتمايلة بين الفصول التي تسطع فيها زهيرات النعمة والغفران . تحط طيور الصاعقة وتنتصب أقمار وأشجار ذهب الفجر فوق رحلة نهرك التي تطن طوال الليل . رغباتنا العصية المرتعشة في أعالي انهار سرتك المذورة الليالي ، وتوحيداتنا للآلهة التي ننسفها أمام سلطانك في كل حين . وانتفاضات مصائرنا المعلقة ما بين الهاوية والأدراج اليقظة عبر تهشمات القناديل النجمية لعطشنا الى ينابيع وجهك الذي تقاسمنا فيه النمور فرائسها وسفرجل الرغبات . تضيع كلها تحت لهب شمعدانات فراديس عريك المنفتحة على ليل أعياد حصادك كثيرة الغبطات .

٢١ / ١ / ٢٠٠٦ مالمو

الحجارة الكريمة لانتظارك بين شواطئ الزمان المتهدمة

في تصعيدات القنائص لرناتها المتقطعة عبر غابات الليل . في اطلاق اليورانيوم للطاقة العظيمة لسنبلة الذرة وعهودها . في شعلة العلامات المدركة للذكرى العميقة للطيور النقارة بين اهراء الغلال . تنكشف خدائع سهراتنا تحت خيوط الليف والحلفاء في أرض صمتك المنحنية على نفسها ، وتعري نظراتك المصطدمة بطرائدنا المنقسمة بين الالحاحات الكثيرة للخلود ، شفافية ثمرة عشقك وامتلاكنا لعقيقها ما بين الأشجار وما بين إلينابيع . مرجان بحر شفتك القانصة لفضائل رغباتنا ، يدمر كل الايمانات الضرورية لمطالباتنا في استعادة البندق الذي ادخرناه لسنجابك أسفل شجرة الصيف . في التدشينات المتحفظة لسنوات عشقك وعظمة حدوسنا المترجمة دائما للارادة والادراك ، يتعانق الله والشيطان في فردوس وعدك الذي بلا جسور . ضمينا بين طيات رحمتك المتحايلة وخلاصنا من التعلقات المستمرة في الحجارة الكريمة لانتظارك بين شواطئ الزمان المتهدمة .

٢٤ / ١ / ٢٠٠٦ مالمو

وحدة الجسد وانفراطه

أ.د. عقيل مهدي يوسف

ان الجسد الاجتماعي محافظ عليه (المأساة) التراجيديا، اما الملهاة (الكوميديا) فانها تقطعه الى اجزاء متناثرة، وهنا نرى في الكوميديا دي لارتا تداخل القناع بين اعتماده قطعة (اكسسوارية) او التعامل معه (كشخصية)

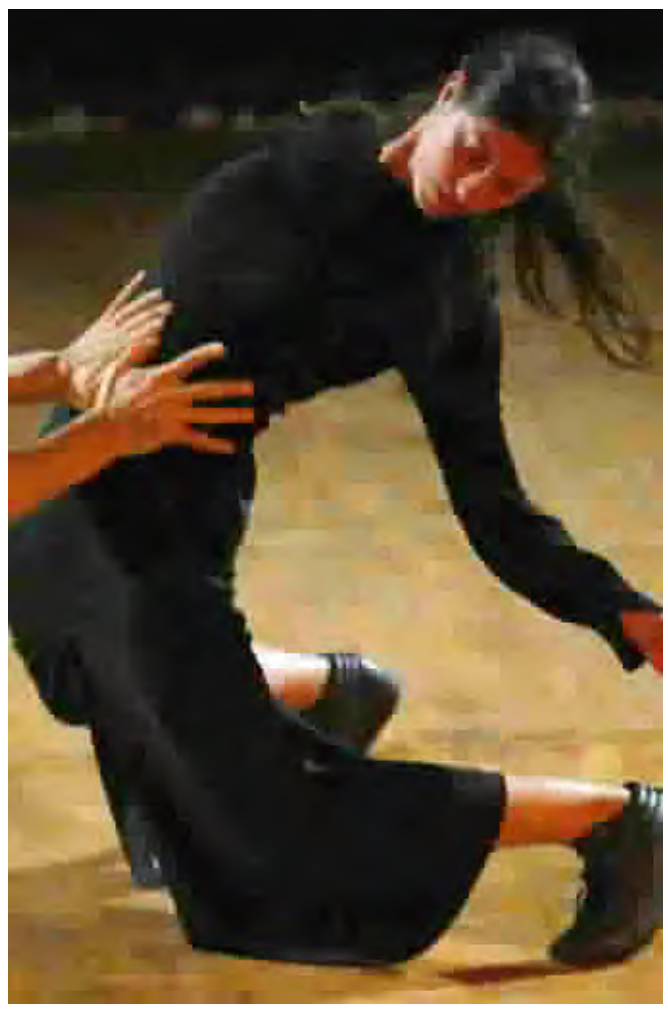

فالقناع (ليس وجها آخر، وانما واجهة مفقودة) أي نفي للوجه باعتباه فضاء جسديا يتمظهر عبره الداخل بشكل فعال ومرئي بالخصوص، ومباشر تقريبا، أي ثنائية تعكس الاعماق النفسية والتاريخ الداخلي والصورة المعروضة على المتفرج.

(جوردن كريج) وصف القناع بأنه رأس مثالي، ليشكم من خلاله نزق الممثل وأهواءه المتغيرة غير المستقرة، وهو يرغم الممثل على اقامة لعبة على مجموع جسده، واعتبر (مايرخولد) القناع رمزا للتعبير عن جوهر الكائن، واداة (لايتموتيف) وهو لعب مقنع للبحث عن الحيواني والعجائبي الخارق، وتوظيفه مسرحيا.

وجوه ملونة

وفي آسيا القصية (الصين) و (فيتنام) مثلا تصبغ الوجوه تعويضا عن الاقنعة فالاحمر يمثل الطيبة والاسود الخشونة والوردي كبار السن الطيبين والذهبي (والفضي) للالهة وفم وحاجبان متماثلان للوجوه الجميلة وما عداها فللوجوه البشعة.

اكتشف (برتولدبرخت) اداء الممثل الصيني (مي-لان-فانج) في عرض قدم في موسكو عام (١٩٣٥) وكتب عن هذه التحولات، او مسخ الكائنات Metamorphose من المسخ الى التقنيع، حين يتحول القناع الى مادة اساسية في الكتابة ووسيلة الى اثارة المتخيل وقد وظف هذا الاجراء الجمالي الى جعله فعلا سياسيا في عرض مسرحية (رجل برجل) الذي يسقط من السماء، لان عودة الاقنعة في الفترة المعاصرة اتخذت دلالتها الحقيقية في المجتمعات المتأزمة التي تجرب فيها توجيهات المنع، وكما يبدو فان (المانيا) العشرينيات كانت نموذجا لهذه المجتمعات.

برخت استعاض عن القناع الثابت، بالتقنع Masquillage ليوسع دلالته ويعطيه صيغة تعبيرية تحتوي صانع القناع، والمكلف بالمكياج وتتجاوزهما.

ويرى (بيتر بروك) بان القناع ذاتية مضاعفة، ليصف الوجود اليومي للانسان واستعمله في (ندوة العصافير) بقوله (لاحظنا ان ثمة لحظة تصطدم خلالها (ذاتية) الممثل بحدودها الانسانية، والقناع لديه اما ممل منفر ومثير للاشمئزاز وهو ما يلازم اغلب الاقنعة في المسرح الغربي لذلك يستعمله (بروك) ويستعيد طابعه المقدس كأداة جمالية، اما في (الشرق) فيشكل القناع رمزا للعودة الى الاصل المقدس للاشياء والبحث عن طفولة الانسان المفتقدة، واعادة ربط الصلة بالاله والطبيعة، وتحقق المصالحة مع الكون، وبخلاف ذلك، افتقد الغربيون هذه الصلة بحكم اتجاههم نحو (اسطورة التغيير) الدائم والمتوالي لاشياء العالم.

ويتحدث (نيتشه) عن عمق القناع بقوله (ان كل من هو عميق يعشق القناع) ويؤمن (كريج) بأن (متراً مربعا من افريقيا يمثل مسرحا حقيقيا اكثر من المدن الاوروبية مجتمعة لاستحضارها (القناع) بشكل مكثف في طقوسها واحتفالاتها).

واقع المرأة العراقية على مسارح روما

موسى الخميسي
روما

قدمت فرقة" اركان" المسرحية التي يقودها الفنان المسرحي العراقي قاسم البياتلي مسرحية" دراما راقصة" على خشبة مسرح كولومبوس في مدينة روما.

والمسرحية التي كتبها وقام بدور البطولة فيها قاسم البياتلي تستعرض فكرة صراعات ملك جائر ، هو رمز القوة المسيطرة والمستبدة، ويتمثل موقفه في القمع الدائم للمرأة" كلما يأخذ بنتا باكرا، يزيل بكارتها، ويقتلها من ليلتها" والمرأة – رمزها شهرزاد- اصبحت في مواجهة القمع الجنسي والجسدي والاجتماعي، وكانها تمثل ضحية دائمة لمجتمعها. هي الراوية المنظورة التي تحكي مأساتها في مطلع الف ليلة وليلة،وهي الفاتنة التي تكرس نفسها لارضاء السيد واشباع نزواته، وهي الجارية التي تجري وتركض من اجل تحقيق رغبات الرجل. ونلاحظ ان وراء كل حكاية رواية غير منظورة. والمرأة هنا تسعى للعيش بكرامة" وان ارادت امرا لم يغلبها شيء" حيث تنطلق الاحداث من تلك الفكرة لتروي للمشاهد العديد من الحالات والمواقف المستمدة من حكايات الف وليلة وليلة واخرى من التراث الشعبي العراقي ليربطهما المؤلف في خدمة نصه المسرحي، الذي يريد من خلاله اثبات ان الفكر الاسطوري القائم على اساس غيبي- لاعقلاني صريح له منطقه المختلف تماما عن منطق الفكر الموضوعي. والاسطورة المكونة لهذا الفكر تنزع دائما الى اضفاء صفات قدسية غامضة على مواضيعها واشيائها واشخاصها.

وقد استند الفنان قاسم الى الحكاية الشعبية العراقية" بزبز"، وهو قزم ولد داخل قبر من امرأة تم قتلها وكانت حاملاً بجنينها الذي اطلق عليه اسم" بزبز"وهو مخلوق قزم يرمز لصوت كل الفتيات اللواتي قتلن بامر من الملك الجائر" شهريار" يخرج ليليا من القبر ليلعب مع البزابز الاخرى، ويسخر من الاحياء الذين يدبون فوق الارض برقصاته واغنياته الغريبة الاطوار ، التي تحمل احتجاجا ورفضا، لكل الاستلابات الاسطورية التي تحجز الناس وتفرض محرماتها وتستخدم كل قواها الغيبية التي تتذرع بها لخداع الآخرين لخلق هزائمهم وفرض القيود عليهم.

من جانب آخر فان المؤلف يربط الفكر الاسطوري بالسلوك الاجتماعي، باعتبار ان الاسطورة لم تتلاش في اي مجتمع لانها تشكل جزءا من لغة التعبير الشعبي، فقد يتبدل شكلها، اما طبيعتها فتبقى، وقد يتغير دورها، انما بنيتها تستمر في علاقة جدلية مع البنية الاجتماعية، ولهذا فانه يربط الفتاة الساحرة الجمال "شهرزاد" وهي تحاول في كل ليلة الخروج من الفكر الاسطوري السائد الذي يعتبر الاختلاف الجزئي في تكوين كل من الرجل والمرأة بمثابة امتياز خاص للرجل على المراة، وهو ركام اسطوري

مازالت مجتمعاتنا تتعامل فيه ويصور المرأة في وضع القاصر جسدا وعقلا وعملا ودورا.

في صمت الليالي الطويلة تنسج" شهرزاد حكاياتها الساحرة وتروض رغبات اغتنام المرأة بالقوة عند الرجل المستبد المتجبر الشبق الذي يفض بكاراتهن ويرميهن للعذاب والقتل ، في واقع يروي حكاية الناس وعذاباتهم وهم ينظرون الى الامل المعلق بالسماء، والشرط الموضوعي لنيل حريتهم والخلاص من استلاباتهم وانحساراتهم، وصراعاتهم بين العودة الى " السلف الصالح" والانفتاح على العالم الجديد بصراع مرير مع الحاضر ، بما في ذلك بنيته الاسطورية، حيث جعل المخرج افعال الممثلين والراقصين وعملية الانجاب، مقياسا لتبصر الناس الى مستقبلهم .

يقول المخرج قاسم البياتلي لـ(المدى) حول هدف مسرحيته:

– ملوك الامس الذي يمثلهم" شهريار" كانوا يقتلون النساء تحت واجهات الشرف والعفة والفداء للغيب، والرغبات المحمومة تحت شعار" قيمة المرء ما ملكت يمينه" واليوم تتكرر صورة الحريم ليقوم صعاليك العهد الجديد بسجن المرأة وسجن فعالياتها وانسانيتها، سواء كانت أماً او اخت او زوجة او صديقة او رفيقة، فكما كانوا يلعبون بمصيرها بكل حماقة وغباء، فانهم اليوم يهمشونها ويهمشون دورها ويجردونها من كل المكاسب التي نالتها بنضالها، لتكون منزوية ومنعزلة ومحصورة في قضايا لاتهمها من قريب او بعيد، وتجعلها بالتالي تماشي او تؤيد سياسات رجعية متخلفة، دون حتى ان تدرك بانها تخون نفسها ومصالحها الانسانية.

ان الشرط الموضوعي لتحرير المرأة هو دفعها والاندفاع معها لرفض الفكر الاسطوري وهيمنته ونقضه في الممارسة، وهذا بدوره يحرر المرأة ككائن انساني، كعامل ذاتي مثل الرجل، في صنع الغد المشرق الذي ننتظره جميعا ان يتحقق في عراقنا الجديد.